اسباب الحرب

بقلم الاديب المجيد محمد رفيق بك العظم الدمشقي

اسباب الحرب هي بواعثها الجوهرية وتنحصر في امرين الاول مجرد حب التغلب والثاني العداوة السابقة اما حب التغلب الذي هو ثمرة الطمع فانه ملكة تدفع صاحبها الى استجلاب المنفعة اليه بالخروج عن دائرة السكون الى براح الحركة طلباً المزيد على ما لديه من القوة والسلطان والممالك والبلدان كما هو شأن المجتمع الدولي المنتظم من هيئة الدول العظام بخلاف الشعوب المتبربرة والامم المتوحشة ممن يؤثرون الرحلة على المقام فانما منفعتهم عبارة عن مجرد السلب والنهب اللذين هما مادة ارتزاق اولئك الاقوام · ويحسن ان نسمي الحرب الناشئة عن هذا السبب حرباً مجردة

واما العداوة السابقة فهي اما ان تكون ناشئة عن تعدٍ قديم بوجب ايغار الصدور حتى اذا جاء الوقت المناسب للانتقام وامكنت الفرصة استحال السكون الى حركة تضطر للتألب سعياً وراء الاخذ بالثار واسترجاعاً لحق المغتصب او الشرف المسلوب فان الانسان مطبوع على اباء الضيم والانفة من اهتضام الحقوق ومن هنا نشأت المخاصمات والمنازعات التي كانت علة لوضع القوانين بين الناس · واما ان تكون منبعثة عن حب الرآسة والرغبة في الاستئثار بالمنفعة مما لا مصدر له الا الحسد الذميم الذي يتولد في عناصر الامم فيدعو الى البغضاء ويبعث على الشحناء ويهيج النفوس لحب ازالة النعم ويناسب ان تلقب الحرب المنبعثة عن هذا السبب حرباً غير مجردة

فهذه هي اسباب الحروب المستمرة التي فطر الانسان على اثارتها فجرّ

على ابناء نوعه بها الهلاك ودوام الارتباك فليته لم يكن شيئاً مذكوراً

ولما كانت الامة المحاربة لا تَقدَم على الحرب الا اذا تيقنت من نفسها الفوز والغلبة على عدوّها كان لا بد لها من قوة تستند عليها وتعوّل في نوال النصرة عليها · وتلك القوة تختلف باختلاف الدول والامم فانها اربعة اقسام قوة المال وقوة الرجال وقوة الموقع الجغرافي وقوة المركز السياسي

فقوّة المال مرجعها تقدم الامة في التجارة والصناعة والزراعة وما يتبع ذلك من العلوم والفنون التي عليها مدار التقدم في الثروة والغنى · وقوّة الرجال مرجعها عمارة البلدان واتساعها ووفرة السكان وانتظام الجند وصبرهم على تحمل مشاق الحروب ودُرْبة القوّاد وامانتهم · وقوّة الموقع الجغرافي مرجعها اصل الانتخاب للنقطة التي تقيم بها الامة اما بالقصد واما بطريق الصدفة · وقوّة المركز السياسي مرجعها انضمام اطراف المملكة وخلوّها من الاضطرابات الداخلية وتوفر دواعي الامن والانتظام فيها واتفاق اهليها على المصلحة الوطنية وان اختلفوا فيها طرقاً وانقسموا احزاباً وفرقاً مع ما يلحق ذلك من عدم طموح الدولة الى طلب المزيد على ما لديها محافظة على مركزها ودفعاً لاسباب العداوة مع سواها وقد ينضم الى مراجع هذه القوّه الاخيرة كون وجود الدولة في العالَم السياسي فيه مصلحة لدولة او عدة دول ترى نفسها مراعاة لمصلحتها مضطرة عند مسيس الحاجة للمدافعة عن تلك الدولة حسياً او معنوياً

ولكل من هذه القوى الاربع دخل عظيم في الظفر والانتصار فاذا اجتمعت لدى دولة كانت الى الربح اقرب منها الى الخسران والعكس

بالعكس ومثله ما اذا كانت الدولة ذات قوة جندية يسعها بواسطتها ان تحشد لساحة القتال عدداً عظيماً من الرجال فانها ان لم تكن مصادر القوة المالية متوفرة لديها فلن تستطيع القيام بمؤونة الجند الا بالتقتير او جلب المال من اوجه المظالم وذلك مما يفضي بداخليتها الى الوهن والضعف بخلاف ما اذا اجتمع لديها قوتا الجند والمال مثلا فانها تنفق عن سعة لتشاهب بما يجعلها ترجح سواها

وعلاوة على ذلك فان لكل قوة من هذه القوى على انفرادها فعلا خاصاً لا تنكر اهميته كقوة الموقع الجغرافي مثلاً فان المملكة التي تكون محصنة الجوانب بالمضايق البرّية والبحرية ممنعة الاطراف لا يقدر العدوّ ان ياتيها الا من طريق واحدة ليست كالمملكة التي تكون متفرقة الاجزاء والقوة محاطة بالاجزاء وقس على ذلك بواقي القوات وفعلها بالنسبة لحال المتحاربين

ثم انا لو قابلنا بين الحروب القديمة والحديثة لوجدنا الحديثة اشد بلاء واقوى خطراً وادعى الى الهلاك وان كانتا كلتاهما سبباً فيه فكم من امم تلاشت ودول دخلت اخبار عظمتها في خبر كان باجنته عليها الحروب التي يسعى اليها الانسان مجدًا في كل زمان كانما نسي ان الحروب من اعظم مصائب النوع الانساني فاصبح عاملاً على حتفه بيديه يخترع لذلك الآلات المهلكة ويعدّ المعدّات التي لم تقف به عند حد معلوم بل كلما ترقى في المدنية درجة ترقت معه مثلها حتى كأن المدنية الحديثة عدوّة للانسان اقامت عليه رقيباً يتأثره انّى ذهب وكيفما صعد حتى اذا اصاب

منه غرة القاه من اعلى درجات المدنية الى مهاوي الهلاك وذلك بحكم القياس على من تولى من الامم القديمة التي ابادتها الحروب وذهبت بحضارتها وعمران ممالكها ايدي الغارات كالمصريين والفرس والرومان واليونان وغيرهم من الامم العظيمة التي كانت لها المنعة والسلطان

فقد ذكر بعض المؤرخين ان اقدم دولة رتبت جيشاً خاضعاً لقوانين منظمة فرقت بها بينه وبين طبقات الناس دولة الفراعنة في مصر. واعظم من اعتنى من الفراعنة بالجيوش وتنظيمها واحراز معدات الحروب هو رعمسيس الثاني فان بعوثه وصلت الى ممالك الهند والتتار والاشوريين وغيرهم

فلو تاملنا تدويخه معظم هذه الممالك لوجدناه بلا ريب اعظم قواد المصريين القدماء ومع هذا العظم وذلك الاقتدار وما وصلت اليه المدنية في تلك العصور كما تدل عليه الآثار الخالدة الى هذه الايام لم يكن السلاح اذ ذاك الا من السهام والفؤوس وسيوف النحاس ولم تكن الدروع الا من اللبد. وكذلك امة الفرس التي فاقت بنظامها الحربي من تقدمها من الامم لم يكن سلاحها الا كسلاح المصريين وقد ابادتهم جميعا الحروب واتت على مدنيتهم الغارات حتى لم يبق لهم الا اثر يبصر او خبر يذكر

ولا جرم فان عقول رجال العصور المتمدنة الاولى لم تتوصل الى اختراع آلات وابداع ادوات لاهلاك الانسان الضعيف اكثر مما ذكر فما ذا يقال في شأن المدنية الجديدة الغربية وما هي عليه الآن من التقدم كيف يتفنن رجالها في اختراع الآلات الحربية المهلكة للانسان كالمدفع الرشاش والارمسترنغ والكروب والبندق السريع الطلق والبارود غير ذي الصوت

وغير ذلك من الدخان والتوربيد والديناميت والمنطاد الحربي الى غير ذلك من الاسباب التي تسدّ في وجه المدنية المذاهب وتفضي الى اضمحلالها وصيرورة اهليتها اخباراً تحار عند ذكرها الاذهان

فلا ريب ان مضارّ هذه المدنية على النوع الانساني اكثر من نفعها بل ايّ نفع يرجى من مدنية صيرت العالمَ على شفا جرف هار من البوار وفتحت على الممالك افواه البنادق والمدافع كمن ينتظر اشارة ليلهب الارض ومن عليها بنيران الهلاك والتدمير

ولا عجب فالحرب اخت الانسان نشأت معه وتربت بين يديه فلما لم يتق شرها انقلبت بالوبال عليه

ومن يجعل الصلَّ الخبيث ربيبه ويأمل منه الخير بشره بالشرّ
وهل يرتجي ممن نشا طبعه الأذي سوى بثّه سمّ الأذية والضرّ

والحمد لله الذي جعل البلاد المصرية في مأمن واق من الحروب وحصن حصين دون الكروب وجعل باسها عباسها فدفع له عنها كل محظور فنسأل الله تعالى لمقامه العالي تأبيداً واعزازاً حتى تصل به مصر الى معنى التقدم الحق والكمال المطلوب امين

انتهى المولد الاحمدي الصغير وكان خفيفاً قليل الزوّار بائرا التجارة لم يربح فيه الا بعض الحمارات فان معظم اصحاب الاطيان باعوها او رهنوها ولم يبق بيدهم ما يشترون بضاعة او يضيعون به شرفاً ومالاً وديناً اما اصحاب الطرق واهل الخير فكانوا على احسن ما يكون من الهدو والنظام والاشتغال بانواع الطاعة والقربات ولنا في هذا الموضوع كلام نؤجله الى فرصة اخرى